

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

التقارب الأوربي الصيني وأثره على العالم الإسلامي في العصور الوسطى

the european chinese rapprochement and its impact on the Islamic world in
the middle ages

العربي بوبكر Larbi boubakeur

أستاذ محاضر "أ"، جامعة يحي فارس المدية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية
مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور

College of Humanities and Social Sciences, Department of Human Sciences, Laboratory of
Mediterranean Studies Through the Ages

laarbi.boub@gmail.com

تاريخ القبول : 26 - 02 - 2024

تاريخ الاستلام: 16- 08 - 2023

الملخص:

شكّلت السفارات الأوروبية إلى الصين في الفترة الوسيطة فرصة للاطلاع الأوروبيين على حضارة ومعتقداته، ورغم أنهم كانوا يعرفون الحرير الصيني والتوابل الهندية منذ عهد الرومان، إلا أن هذه السفارات هذه المرة كانت بإبعاد سياسية قام بها جان بلاك كاربيني مبعوث البابا أونست الرابع سنة 1245م، وبعده وليم روبروك وبارثليمو الكريموني مبعوثا الملك الفرنسي لويس التاسع 1253م في عز الحروب الصليبية، وكان الهدف من هذه السفارات تحويل المغول من الوثنية إلى المسيحية وإقامة تحالف بين المغول والصليبيين ضد المسلمين، وتعد زيارة ملك أرمينيا هيثوم الأول إلى الصين سنة 651هـ، 1253م، أهم تلك السفارات، ورغم أنه لم ينجح في جعل المغول يتحولون إلى المسيحية إلا أنه نجح في التأثير على البلاط المغولي في خانية فارس خلال عودته إلى أرمينيا بعدما لقي ترحيباً واسعاً من هولاكو خان الذي كان بلاطه يعج بالمستشارين المسيحيين من الأرمن والكرج، كما أن زوجة هولاكو قطز خاتون، كانت مسيحية متعصبة، فإلى أي مدى ساهمت هذه السفارات في دفع التقارب المغولي الصليبي؟، الذي دفع المغول إلى إسقاط الخلافة الإسلامية سنة 656هـ، 1258م؟.

الكلمات المفتاحية: السفارات، هولاكو، الصين، لويس التاسع، المسلمين.

Abstract:

European embassies to the east in general and china in particular provided an opportunity for Europeans to learn about its civilization and beliefs, and although they knew Chinese silk Indian spices since the roman era, the embassies carried out by gean Black carpini,envoy of pope Honest IV in the year1245AD, and after him William Rob brook and Bartholomew of Cremona; envoys of the king the French Louis IX in1253AD, at the height of the crusades; and the visit of king hethumI of Armenia to china in the year 651AH,1253AD; had religious and political dimensions; and aim of these Embassies was to convert the Mongols from paganism to Christianity and to establish an alliance between the Mongols, And the crusaders against the Muslims. Embassies in the Christian Mongolian rapprochement? And what is the impact Of those embassies on the Islamic world ?.

Key words: Key words :Embassies, hulagu, china, Louis IX,muslims

1_مقدمة

الصين، ومن أقصى الشمال الشرقي لقار واسيا خاصة حدود سيبرسرسا، وفي الحقيقة فهي منطقة محصورة بين السلاسل الجبلية، تعتبرها سهول قاحلة جرداء، تميزها صحراء غوبي الجرداء³.

غفي هذه البيئة القاحلة الجرداء انتشرت القبائل المغولية، التي صارت تحمل هذا الاسم بعد أن وحدها جنكيزخان، ومن أشهرها قبيلة الاويرات ، تقيم بين نهر أنون وبحيرة بايكال، تميزت بكثرة عدده، وهي قبيلة وثنية أخضعها حنكيزخان⁴.

قبائل النايما، قبائل تركية يغلب عليها الطابع المغولي، استوطنت اقاصى الغرب، بين أعالي نهر ارتيش، ونهر ارخون، قريبا الجغرافي من قبائل الايغور جعلها تعتنق المسيحية على المذهب النسطوري⁵ ، كانت أكثر القبائل تمدنا نظراً لاحتكاكها بقبائل الايغور⁶.

لفهم طبيعة هذا الصراع لابد من العودة ولو بشكل سريع لفهم طبيعة المعتقد المغولي وماهي طبيعة التحولات التي طرأت عليه فيما بعد، يشير الكثير من المؤرخين أن المعتقد الأول للمغول هو الديانة الشامانية⁷.

نتج عن الزحف المغولي للبلاد الإسلامية سواء في عهد جنكيزخان أو خلفاءه من بعده نتائج متعددة، كان أبرزها إصابة العالم الإسلامي بالفرع والشلل نتيجة الكم الهائل في الخسائر أملاكا وأرواحا ، حتى أن أقلام المؤرخين ذكرت ذلك بكثير من الأسى والألم ولعل أبلغ وصف لهول ما حدث ما كتبه أشهر مؤرخي تلك الفترة، وهو عز الدين بن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ¹.

إذا عدنا إلى تحليل نتائج الغزو المغولي على العالم الإسلامي، فإننا نقف عند نتائج متعددة ، لعل أبرزها قيام إمبراطورية مغولية مترامية الأطراف شملت إجراء واسعة من العالم الإسلامي، أما النتيجة الثانية فهي حجم الخراب والدمار الذي لحق بالبلاد الإسلامية ، إذ أن الكثير منها صار حطاما وركاما على ذكره الكثير من المؤرخين²، نعل أن أهم نتيجة تعينينا في كل هذا، هو ذلك الصراع الديني الذي ظهر في البلاط المغولي، سواء أ في العاصمة قراقورم أو فيما بعد في الممالك المغولية التي قامت وفق ما أقره جنكيزخان وفق القانون المغولي او ما يعرف بدستور الياسا..

2_ القبائل المغولية قبل جنكيزخان، الأصل

والمعتقد:

تعد العوامل البيئية عنصرا هاما في دراسة العناصر البشرية، لأنه من خلاله يمكن معرفة الخصائص البشرية للمجتمعات، وهو ما تؤكد معظم الدراسات الحديثة في العلوم الاجتماعية، وهنا يطرح السؤال التالي، من هم المغول؟، يغد الموطن الرئيسي للقبائل المغولية المنطقة الجغرافية الواقعة في وسط أسيا بين نهري، سيحون، وجيحون من الجهة الغربية حتى الحدود الجبلية في شرق

¹ - لقد بقيت عدة سنين معرضا لآثار الأثر، الكامل في التاريخ، ص. 333.
² - أفاض الكثير من المؤرخين المسلمين وغيرهم في الإشارة إلى حجم الخراب الذي لحق بالبلاد الإسلامية، خاصة في بخارى وسمرقند وبعدهما بغداد وغيرها.

للمزيد انظر: العربي بوبكر، المغول من الشامانية إلى اعتناق الإسلام، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، عدد، 14، السداسي الأول، 2018، ص. 106-119.
³ عبد السلام عبد العزيز فهد، تاريخ الدولة المغولية في إيران، دط، دار المعارف، مصر، 1981م، ص. 13.
⁴ طائفة من طوائف النصارى نسبة إلى نسطور بطريق الكنيسة في القسطنطينية، استوطنوا إقليم تركستان، وعملوا على نشر المسيحية في إيران والهند والصين.
⁵ عبد السلام فهد، مرجع سابق، ص. 17.
⁶ -7- توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، تر، إبراهيم حسن وآخرون، ط1، مكتبة النهضة العربية، 1970م، ص. 251، وانظر ايضا: الرمزي، مصدر سابق، ص. 333.
الصيد، المغول في التاريخ، ص. 335، بارتولد، تركستان، ص. 554.

بنفس المعاملة¹⁰، ويعتقد الكثير من الدارسين أنها أحد أسباب نجاح سياسة جنكيزخان في إدارة الدولة.

هذه السياسة المنتهجة كانت من بين العوامل الأساسية التي ساهمت في إستقرار نظام الحكم وتحقيق مختلف النجاحات العسكرية في ظل الامتيازات الممنوحة إلى كل الأطراف دون تمييز.

3_ المغول بعد جنكيزخان

بعد وفاة جنكيز خان لم يبق الأمر على حاله و يعود ذلك إلى مجموعة المتغيرات التي حدثت في البيت المغولي، ومنها إنقسام الإمبراطورية المغولية إلى مجموعة من الإيلخانات تُسرّ تقريباً بشكل منفصل عن السلطة المركزية في قراقورم، ودخول بعض العناصر المغولية إلى الإسلام¹¹، وزيادة الأطماع المسيحية في استعطاف المغول وبذل كل الجهود للتقرب منهم.

أسهمت هذه المتغيرات على زيادة الصراع الديني بين مختلف الديانات المنتشرة بين المغول، وكان أكثرها خاصة الصراع بين المسيحية والإسلام، وبين الإسلام وبعض الديانات الوثنية، يبدو أن شعور أوربا بالخطر المغولي من خلال النجاحات العسكرية التي حققتها الجيوش المغولية الزاحفة بشكل سريع وقوي على مناطق واسعة من القارة الأوروبية¹²، هو الذي دفع الأوروبيين، وخاصة منهم رجال الدين

وهي ديانة وثنية، إعتمدت على عبادة الكواكب والأصنام وأرواح الأجداد القدامى، وظلت

الشامانية المعتقد الأول للمغول، وقد سادت الديانة الشامانية كديانة بدائية بين مجموعات مختلفة من القبائل المغولية، وكان انتشارها واسعا عند قبيلة قيات، وهي القبيلة التي ينتهي إليها جنكيزخان، وأيضا عند قبلية أويرات.

كما إنتشرت بعض الديانات الأخرى بينهم كالمسيحية، فقبيلتا الكرايت والنايمان واللذان تعدان من أشهر القبائل المغولية، كانتا على المسيحية النسطورية، إذ يذكر المؤرخين أنهم اعتنقوا المسيحية منذ سنة 438هـ، 1008م⁸، في حين أن البعض من القبائل المغولية بقي متأثرة بالبوذية، وتعتقد بتعاليمها خاصة عند القبائل المغولية التي كانت تجاور الصين.

أما فيما يخص موقف جنكيزخان، من إتباع الديانات الأخرى سواء كان ذلك بين قبائل المغول، أو الجماعات الوافدة إلى بلاد المغول، أو المناطق التي خضعت لهم، فإن المصادر الإسلامية والمغولية وكتب الرحلات الأوروبية، تشير كلها إلى أن جنكيزخان وقف موقفا محايدا، ولم يقدم ديانة على أخرى، فلم يتأثر بديانة قبيلته الشامانية، أو ديانة زوجته المسيحية، لذلك يشير بعض الكتاب الأوروبيين مثل مورغن وساوندوز بالقول: "أن المسيحيين والمسلمين واليهود والبوذيين علاوة على الشامانيين، قد تمتعوا بحريتهم الدينية، وإقامة معابدهم وشعائرهم دون ضغط أو ملاحقة"⁹.

يستنتج مما تم ذكره أن جنكيزخان اعتمد مبدأ التوازن بين مختلف الديانات السائدة داخل الإمبراطورية المغولية، وكان مستشاريه من مختلف الديانات يحضون

¹⁰ - من بين مستشاري جنكيزخان المسلمين محمود بلواج وابنه مسعود، وقد لعبا دورا هاما في مساعدة المسلمين.

¹¹ - تذكر المصادر التاريخية ومنها الرمزي وغيره، أن أول من أسلم من المغول هو بركة خان حفيد جنكيزخان من ابنه الأكبر جوجي، أنظر:

الرمزي، مصدر سابق، ج2، ص26.

¹² - استطاعت الجيوش المغولية التي قادها باتو وسوبتاي أن تحقق نجاحات عسكرية كبرى أنهت بعض إلى إسقاط المجر لمتي أبدي ملكها بيلا الرابع مقاومة شرسة، إلا أنه لم ينجح أمام قوات سوبتاي، الذي أحرق الكثير من المدن، وفر بيلا الرابع إلى ساحل بحر الأدرياتيكي، كما سقطت مدن أخرى بعد أن اجتاز باتو نهر الدانوب في 25 ديسمبر 1241م، ولم ينقذ أوربا إلا موت الخان الأكبر أوكتاي في هذه السنة، وكان حظ أوربا كبير

⁸ - عبد السلام عبد العزيز فهد، مرجع سابق، ص132.

1-morgan.david. the mongol.oxford1986p.232.

Saundens.j.the history of the mogol conquers.london.1971.p

الملك لويس التاسع¹⁵، أرسل إلى البلاط المغولي راهبا فرنسيا ليقوم بمحاولة جديدة، وهو وليم روبروك، رفقة راهب آخر وهو بارثيلمو الكريمون، و أستقبل في البلاط المغولي، ورغم أن منكوخان الذي حكم من، 649هـ، 657هـ/1251م، 1259م، أبدى حقدا ضد الدول الإسلامية، خاصة في دفع أخيه هولكو نحو الخلافة العباسية إلا أنه عامل المستشارين على إختلاف ديانتهم بنفس المعاملة¹⁶.

كان من نتائج ذلك الحماس الكبير الذي أبداه منكوخان أن دفع أخيه هولكو نحو عاصمة الخلافة من أجل إسقاطها، ولم يكبح هذا الطموح إلا المعارضة الشديدة التي أبداهها بركة خان في دفع أخيه باتو كي يضغط على الخان الأكبر، ويجبره على عدم تنفيذ خطته، وربما الدور الذي لعبه باتو في نقل الخانية العظمى من بيت أوكتاى إلى بيت تولي هو الذي جعل منكوخان يلبي رغبة ابن عمه، كما أن باتو خان كان يحظى بمكانة كبرى في العائلة¹⁷. الجنكيزخانية، ويحظى بنفس المكانة التي يحظى بها الخان الأكبر في قرقورام على ما يذكر الراهب وليم روبروك الذي حظى باستقبال باتو خان¹⁸، ويبدو أن باتو خان نجح في تأخير الحملة على الخلافة العباسية مؤقتا، لأنه بوفاته عام 653هـ 1255م، زاد إصرار هولكو على تنفيذ مشروعه، في ظل الدعم المتواصل من

على بذل كل طاقتهم، في إيجاد أسير الطرق التي تمكنهم من وقف الزحف المغولي، وكان استغلال المسيحية كإستراتيجية أولى لتحقيق تلك الأهداف.

لما توفي أوكتاى في سنة، 639هـ، 1241م، تولي عرش المغول أرملته توركيينا خاتون، وهي امرأة عُرِفَت بالذكاء والنشاط والمهارة، إذ عملت كل ما في وسعها، لتجعل من ابنها كيوك خانا أكبر للمغول، الذي كان يقاتل في روسيا، و إنتهزت أمه الفرصة لتطول فترة الوصاية، التي ساعدتها في التخلص من كثير من مستشاري أوكتاى، بعد منازعة ابنها من طرف ابن عمه باتو، وعمه تموجي، وامتدت فترة حكم كيوك من 1246، 1248م.

4-محاولات التقارب المسيحي المغولي

حضر إنعقاد مجلس القوريلتاي الذي نصب فيه كيوك خانا أكبر للمغول، الكثير من المدعوين، ولم يغيب عن هذا اللقاء سوى باتو الذي أعذر بالمرض، وما همنا في هذا المجلس ما أورده الراهب جان بلان كاربييني الذي حضر إلى بلاط المغول مبعوثا من طرف البابا أنوسست الرابع وكان ذلك سنة 643هـ، 1245م قاطعا روسيا وبراري آسيا الوسطى¹³، وحضر تنصيب الخان الأكبر الجديد، ورغم أنه إستقبل مبعوث البابا بالترحاب وبما يليق به، غير أنه لم يلب دعوته في اعتناق المسيحية، والأكثر من هذا أنه طلب من البابا وسائر أمراء الغرب أن يقدموا له الولاء والطاعة، ورغم خيبة الأمل إلا أن البابا أنوسست الرابع ظل متمسكا بخيط الأمل في دفع المغول الى إعتناق المسيحية¹⁴. لم ييأس الغرب المسيحي من محاولاته المتكررة لدفع المغول إلى إعتناق المسيحية.

¹⁵ - لويس التاسع 1226م، 1270م، ابن ملك فرنسا لويس الثامن، أما أمه فهي بلونش، ابنة الفونسو التاسع ملك قشتالة، تولت الوصاية على ابنها عند سن الثانية عشر، رغم جمالها الفائق إلا أنها رفضت الزواج، وسعت إلى توطيد حكم ابنها، يقال عنها زوجة الملك، وابنة الملك وأم الملك، كان لويس التاسع من أشد أعداء المسلمين، ظل ساعيا للتقرب من المغول وطائفة الإسماعيلية الشيعية، أنظر:

jackson.peter.the.mission of william
RubRuk.london.1990

¹⁶ -ROUBrouk.wi.voyag dans l.empire
mongol.ed.payot.paris.1985.p.p.20.211.

¹⁷ - الباز العرينى، المغول، ص، 195.

¹⁸ -Roubrouk.wi.op.cit.p.126

-الصيد، المغول في التاريخ، ج، 1، ص، 231.

إذا أنها نجحت للمرة الثانية من الغزو المغولى الذي كاد أن يسقطها، فأنقذها في المرة الأولى موت جنكيزخان، وفي الثانية موت الخاقان الأعظم أوكتاى.

¹³ - الباز العرينى، مرجع سابق، ص، 189.

¹⁴ - نفسه، ص، 196.

إلى بلاط قوبيلاي خان²²، ورغم الحفاوة التي إستقبل بها إلا أنه لم يحقق ما كان يصبو إليه، رغم أن قوبيلاي خان كان تحت تأثير أمه المسيحية إلا أنه ظل محافظاً على معتقده البوذي، وإتبع سياسة دينية شبيهة لجده جنكيزخان.

إنتهج قوبيلاي خان مبدأ التوازن بين الديانات داخل البلاط المغولي، ينقل مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين أن قوبيلاي خان، "عمل على إعفاء المسلمين والنصارى والبوذيين من الخراج"²³.

يظهر أن هذه السياسة كان الهدف منها إحداث توازن جديد بين الديانات خاصة وأن عهد سلفه منكو خان عرف إنحيازاً واضحاً للمسيحية. وفي عهده حقق المسيحيون نصراً كبيراً تمثل في إسقاط الخلافة العباسية عام 656هـ، 1258م، وقد الحق فيها الكثير من الأذى بالمسلمين.

في عهد قوبيلاي خان صارت الممالك المغولية تسير وكأنها دول منفصلة عن الدولة المركزية، وفك تقريباً الإرتباط مع العاصمة قراقورم إلا في القضايا الجوهرية الحاسمة، و ربما هذه الإستقلالية هي التي ساهمت في حدة الصراع بين مختلف الديانات، خاصة بين المسيحيين والمسلمين بدرجة أكبر، إذ أن النصارى بذلوا كل جهدهم من أجل دفع المغول نحو ذلك الأمر، خاصة بعد أن وجدو عيوناً لهم داخل البلاط المغولي، من خلال بعض النساء اللواتي إعتنقن المسيحية، يضاف إلى هذا فإن البعثات التبشيرية التي تغلغلت داخل نسيج القبائل المغولية الوثنية، نجحت في تنصير الكثير من

أخيه، و التحريض المتواصل الذي قام به مسيحيو أوروبا ضد المسلمين¹⁹.

لكن يجنب التنبيه إلى نقطة جوهرية تتمثل في نجاح، ملك أرمينيا الصغرى هيثوم الأول²⁰، في عقد تحالف مع المغول، بعد أن نجح أخيه سمباد في سفريته إلى قراقورم سنة، 645هـ 1247، وعاد منها سنة، 648هـ، 1250م، إذ حصل على براءة تضمن له وحدة مملكته، ووعد ببذل المساعدة على استرجاع ما إستولى عليه السلاجقة من حصون، ولم يتردد هيثوم الأول في زيارة منكو خان في قراقورم سنة 651هـ، 1253م، ويعتبر هذا الأخير أول زائر يقدم على قراقورم دون دعوة.

جرت العادة أن أغلب زائري قراقورم إما أتباعاً للخان أو ممثليين للملوك، وفي أثناء عودة هيثوم إلى أرمينيا سنة، 652هـ 1254م، بعد أن غمره الخان الأكبر بالهدايا والعود، وفي أثناء عودته إلى بلاده مارا بإقليم تركستان نزل ضيفاً على هولوكو في فارس الذي أحسن وفادته¹، ومن هنا نجد أثر هذه الزيارة لاحقاً خاصة أن بلاط هولوكو صار يعج بالمستشارين الأرمن والكرج المتنفيين.

لم يفقد الأوروبيين الأمل في محاولة جلب المغول واستعطافهم، من خلال كثرة الرحلات نحو قراقورم تحت مبررات عدة، ومن هنا يمكن ذكرنا لرحلة التي قام بها الرحالة الإيطالي الشهير ماركو بولو²¹

¹⁹- ظل الأرمن عبر محطات الصراع بين المسلمين والصليبيين أكثر العناصر حقدا وتحريضا ضد المسلمين، إستطاع ملكهم هيثوم الأول أن يعقد تحالفات واسعة مع عدد كبير من أمراء الفرنج، من خلال مجموعة من المصاهرات، فتزوج ملك قبرص أخت هيثوم الأميرة ستيفاني، أما ماريا تزوجت يوحنا ابلين كونت يافا، كما أن بناته تزوجن أمراء من اللاتين، فتزوجت سبيل، بوهيمند السادس أمير انطاكية، وتزوجت ماريا إبن بلدوين صنجيل قبرص.

²⁰- الباز العرني، مرجع سابق، 249.

²¹- تاجر ورحالة ايطالي عاش بين 1254 م، 1324م، ذاعت شهرته بسبب الرحلة التي قام بها الى أواسط آسيا، ولد في إيطاليا من أب إيطالي سنة 1254م، وخلال رحلته إلى قراقورم، وعين كأحد مستشاري الخان، وعاد إلى إيطاليا بكثير من الهدايا، إلا أنه وفي

طريق عودته ألقى عليه القبض من طرف الجيش الجنوي، وفي سنة 1299م بعد السلام أطلق صراحه، ألف كتاباً شهيراً ضمنه خلاصة رحلاته ومنها رحلته الطويلة لبلاد المغول أنظر:

فرنسيس قرد، ماركو بولو هل وصل إلى الصين، تر، فاضل جنكز، ط1، دمشق، دت، ص، 22.

²²- قوبيلاي خان، حفيد جنكيزخان من إبنه تولى حكم من 1259م، 1294م، سقطت في عهده أسرة سونج الصينية، أنظر: =فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول في التاريخ، ج1، ص، 218.

²³- رشيد الدين، مصدر سابق، ص، 11.

العناصر، إضافة إلى بعض القادة العسكريين و بعض النساء المتنفضات داخل البلاط المغولي²⁴.

كان من نتائج هذا العمل أن نجح النصارى في إيجاد حليف قوى يساعدهم في إسترجاع الأملاك المقدسة في فلسطين، لذلك بذل البعض منهم كل ما في وسعهم من أجل تقوية التحالف الصليبي المغولي الذي ظهر دوره واضحا خلال سقوط بغداد وأن هزيمة الصليبيين في حطين²⁵ لازالت تلقى بآثارها النفسية والعسكرية عند النصارى خاصة منهم المتعصبين، لذلك بذل البعض منهم كل ما في وسعهم من أجل تقوية التحالف الصليبي المغولي الذي ظهر دوره واضحا خلال إعداد الحملة العسكرية على الخلافة العباسية و سقوط بغداد.

5_ اسباب التقارب المسيحي المغولي

حاولنا تفسير عملية تحول المغول عن معتقداتهم القديمة وخاصة الشامانية منها، فإنه يجدر بنا الوقوف عند مجموعة من الأسباب العامة، على أن نعود في ثنايا هذا البحث إلى الأسباب الخاصة بكل مملكة مغولية، أو كل الخانية كما إتفق عليه معظم المؤرخين، من بين هذه الأسباب تأثير بعض الزوجات والأمهات، فالخان الأكبر وأخيه هولاكو كان تحت تأثير والدتها التي تنتمي إلى قبيلة الكرايت التي تعد من بين أول القبائل المغولية التي اعتنقت المسيحية وكانت والدتهما متأثرة جدا بتعاليم المسيحية النسطورية²⁶.

أما زوجة هولاكو طغر خاتون²⁷ فكانت مسيحية متعصبة واقعة تحت تأثير مستشاريها الكرج والأرمن، الذين

²⁴- الباز العري، **المغول**، ص، 246.

²⁵- هي تلك المعركة الشهيرة في التاريخ الإسلامي والتي جرت سنة 583هـ، 1197م، وكان من نتائجها انتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين المتحالفين، وتم خلالها استرجاع بيت المقدس.

²⁶- النسطورية، طائفة من طوائف النصارى ينتسب أتباعها إلى نسطور بطريق كنسية القسطنطينية، استوطنوا إقليم تركستان، ومن تلك المنطقة انتشرت المسيحية في إيران والهند والصين، محمد صالح القزاز، مرجع سابق، ص، 62.

²⁷- يذكرها البعض باسم دقوز خاتون، في حين يذكرها ابن كثير ظفر خاتون، المرأة القوية المتعصبة التي لعبت دورا هاما في مساعدة الصليبيين أنظر:

كانوا من أكثر النصارى حقدا على المسلمين وقد أشرنا سلفا إلى الدور الذي لعبه ملكهم هيثوم الأول في محاولة إستمالة المغول من خلال زيارته إلى قراقورم.

6- نتائج التقارب المسيحي المغولي واثره على العالم الاسلامي:

السنة التي نصب فيها منكو خان على رأس الخانية العظمى، قرر فيها أن يعهد بإدارة فارس إلى أخيه هولاكو، وقد بذل منكو خان من النصائح لأخيه ما أهله لإدارة المنطقة، صحيح أن هولاكو كان يتمتع بقدرات حربية كبرى إلا أنه كان يحتاج إلى نصائح سياسية قد تساعد في إدارة الدولة، وقد لخصت تلك النصائح فيما يلي:

ضرورة استعمال القوة والشدة ضد كل من يعارض سياستك، وفي المقابل، عليك بالمعاملة الطيبة، وبذل مظاهر العطف لكل من أعلن الطاعة والولاء يمكن أن تلخص هذه السياسة كما يلي "كل من يعلن الخضوع والطاعة لأوامرك، فليق منك المعاملة الطيبة، ولتغمره بكل مظاهر العطف، وكل من يعصى أوامرك، فلتشتد في إذلاله"²⁸.

وكان من المستفيدين من مثل هذا الخطاب، ملك أرمينيا²⁹ هيثوم الأول³⁰، ومن جهة أخرى صهره بوهيمند السادس أمير أنطاكية، اللذين قبلا فيما سبق السيادة المغولية، وأعلنا سلفا عن تحالفهما مع المغول.

الأمر الآخر الذي يجب الإشارة إليه هو أن طغر خاتون زوجة هولاكو حظيت بتوصية خاصة من منكو خان الذي أشار على أخيه أن يستأنس برأيها، وأن يسمع نصيحها وأن ينزلها منزلة تليق بها، فهي حفيدة ملك الكرايت وانج خان، وهي

عماد الدين أبي الفدا إسماعيل، **أبن كثير**، **البيداية والنهية**، ط1، ج17، دار هجر للطباعة والنشر، 1419هـ، 1998م، ص، 468.

²⁸- الباز العري، **مرجع سابق**، ص، 208.

²⁹- تقع في منطقة القوقاز في أوراسيا، وتحديدًا عند نقطة تلاقي الغرب الأوروبي مع الشرق الآسيوي.

³⁰- هيثوم بن قسطنطين ينتهي إلى أسرة حكمت أرمينيا الصغرى، بين عام 623هـ، 743هـ/1226م، 1342م، تزوج إيزبيلا بنت ليو الثاني، فلما هلك أبوها ورثت عرشه.

من دعم المغول السياسي والعسكري الذي يمكنهم في استرجاع أملاكهم المقدسة في فلسطين، وهو أمر حيوي ظل على رأس الطموحات والأهداف الأساسية في سياسة النصارى³⁵.

من هنا ظهر دور إمارة أرمينيا واضحا في دعم التحالف المغولي النصارى من أجل الوصول إلى تحقيق ذلك الهدف، وقد أثبت الأرمن ومعهم الكرج عبر فترات التاريخ المختلفة مدى حرصهم على تحقيق هذه الغاية، وشدة عداوتهم للمسلمين، وما يدل على ذلك أن جيش هولاكو الذي زحف على بغداد، كان فيه طوائف متعددة من النصارى، من النساطرة، والأرمن، والجورجيين، وكانوا لا يقلون وحشية وعنفا عن المغول³⁶.

عند دخول المغول إلى بغداد لم يسلم من سكانها حسب رواية بعض المؤرخين، سوى الأرقاء والنصارى الذين تحصنوا بكنيسة الثلاثاء، بأمر من هولاكو و البطريق النسطوري مكينا الثاني³⁷، ومنع المسلمون من دخول الكنيسة من أجل الحماية نظير أموال كثيرة دفعوها ويذكر الكثير من المؤرخين أن هولاكو لما دخل بغداد أنعم على البطريق مكينا الثاني وأنعم عليه، وينقل البعض في ذلك ما يلي: "أنعم هولاكو خان على هذا الأب، وأعطاه دار الخليفة، المعروفة بدار الدويار التي على دجلة حتى يسكنها، وعمر فيها البيعة الجديدة"³⁸.

عبر المسيحيون في الشرق كما في الغرب عن مشاعرهم الحقيقية عندما سقطت بغداد بيد المغول، وكان أكثرهم إبتهاجا الأرمن، وإذا عدنا بشكل سريع إلى مافعله المغول، بإفراد الأسرة العباسية، فإننا نقف عند أبشع صور

لم تختلف عن قومها في التعلق بالمسيحية، وقد وكان من نتائج ذلك أن غمرت أهلها بكل مظاهر العطف والرعاية من خلال إنشاء الكنائس والمدارس المسيحية، وقد نعم المسيحيون في حياتها بكل مظاهر الأمن والاستقرار³¹.

أصبحت إيلخانية إيران من نصيب أحفاد جنكيزخان من أصغر أبناءه تولي، وظلت المنطقة من أكثر المناطق التي استطاع النصارى أن يتغلغلوا فيها بشكل واضح، خاصة في عهد هولاكو وبعض خلفاءه من أمثال أبغا وأرغون ورغم أنه كان معتقدا بتعاليم البوذية³²، إلا أنه كان منحازا بشكل واضح إلى النصارى، وقد لعبت أمه المسيحية وزوجته دورا كبيرا في ذلك الأمر، وكانت لهاتين المرأتين الدور الأبرز في معظم القرارات السياسية والعسكرية، يضاف إلى هذا دور المستشارين النصارى من الكرج والأرمن الذين عملوا كل ما يجب من أجل تنامي الحقد ضد المسلمين، وكما أشرت سابقا فإن ملوك الأرمن لعبوا دورا مميزا في التأثير على البلاط المغولي في إيران، مستغلين حالة التعاطف التي أبداها البيت المغولي في إبداء النصرة والتأييد للصليبيين وكانت زيارة هيثوم الأول إلى بلاط هولاكو وهو عائد إلى بلاده بعد زيارة الخان الأكبر في قراقورم بمثابة المؤشر القوي على مدى تعاطف مغول إيران مع النصارى³³.

بذل النصارى من المواقف والهدايا ما يكفي من أجل إستعطاف المغول، وكان نتائج ذلك دخول الأرمن في تحالف مع المغول، نتج عنه إعفاء كنائسهم في الإمبراطورية المغولية من دفع الضرائب³⁴.

شعر النصارى في غرب آسيا بعواطف المغول الميالة إليهم، في ظل التسامح الواضح معهم، لذلك زادوا من حدة التقارب معهم، وكان الحلم الأكبر بالنسبة لهم هو الاستفادة

³⁵- محمود سعيد عمران، المغول

وأوروبا، الدار الجامعية، الاسكندرية، 1967م، ص، 60.

³⁶- عبد السلام عبد العزيز فهد، مرجع سابق، ص، 131.

³⁷- ميكينا الثاني، لعب هذا البطريق دورا كبيرا في تحريض المغول خاصة هولاكو ودفعه إلى إحتلال بغداد، وكان المستفيد الأكبر من سقوط مدينة بغداد، بعد أن منحه هولاكو الكثير من الأملاك.

³⁸- مرعي فرست، التحالف النصارى المغولي ودوره في سقوط بغداد، مجلة البيان، عدد، 300، دت، ص، 80.

³¹- الباز العري، مرجع سابق، 208.

³²- عبد السلام عبد العزيز فهد، تاريخ الدولة المغولية في إيران، د

المعارف، القاهرة، 1981م، ص، 133، وبعدها

³³- إسماعيل عبد العزيز الخالدي، العالم الإسلامي والغزو

المغولي، ط1، مكتبة الفلاح، الكويت، 1404هـ، 1984م، ص، 173.

³⁴- الباز العري، مرجع سابق، ص، 282.

كتب بعض المسيحيين في سقوط بغداد ما يظهر أنه تشفى في حال المسلمين والخلافة التي كانت عامرة فحولها المغول إلى ركام ورماد، يقول البعض منهم في سقوط بغداد: كانت بغداد في مدة حيازتها الملك، أشبه بعلقة، تمص الدماء، ابتلعت العالم كله... ولما طُفح كيل مظالمها، قدام الرب، عوقبت على ما أراقت من دماء وما عملت من شرور⁴³.
يمكن أن نضيف إلى مشاعر النصارى المبتهجة ما كتبه الرحالة الإيطالي ماركو بولو، ورأينا سلفاً مدى حماسه في إثارة عواطف المغول نحو المسيحية من خلال رحلته الشهيرة إلى البلاط المغولي، يقول في سقوط بغداد: "وأظن أن ربنا أراد الثأر لنصاره، الذين كان الخلفاء العباسيون يكرهونهم أشد الكره"⁴⁴.

تعاضمت مظاهر الأسى والحزن عند النصارى لما توفي هولاكو في 8 فيفري 1265م 664هـ، بالقرب من مراغة ولحقت به زوجته طُغز خاتون في صيف نفس العام، وقد شمل المسيحيين في كل العالم حزناً شديداً على وفاة هذين النبراسين العظيمين، المعززين للدين المسيحي، حتى أن البعض من المسيحيين، يشبهان دورهما في مساندة المسيحية، كما فعل قسطنطين مع هيلينا⁴⁵.

لم يثن موت هولاكو المسيحيين من مواصلة زيادة التقارب مع المغول، خاصة وأن خليفة هولاكو أباقا خان⁴⁶، إعتد سياسة والده المتمثلة في مساندة المسيحيين، وكان ثمار هذا التقارب، تلك المصاهرة التي نتج عنها أن تزوج أباقا خان، بدسينا خاتون ابنة إمبراطور القسطنطينية باليوجوس ميخائيل الثامن⁴⁷، وزادت هذه المصاهرة من تمتين الروابط بين المغول في إيران والبيزنطيين، لمواجهة العدو التقليدي بالنسبة لهما.

الوحشية التي إرتكبت في حق المسلمين عامة وبيت الخلافة خاصة³⁹.

يذكر المؤرخون أنه لم ينج من عملية القتل إلا أصغر أبناء الخليفة، وهو أبي المناقب مبارك، وكان ذلك رغبة من زوجة هولاكو طُغز خاتون وبطلب منها، وقد أرسل إلى الشرق، وتزوج بعدها امرأة مغولية، وإحدى بنات الخليفة التي أرسلت إلى منكوخان، ويروى أن تلك الأميرة لما وصلت إلى سمرقند، طلبت من مرافيقها زيارة قبر قثم بن العباس، الذي إستشهد في سمرقند سنة 57هـ، 776م⁴⁰، في إحدى الغزوات التي سارت من أجل فتح بلاد ماوراء النهر تقول الروايات أن كل الجنود الذين جاؤوا معه قتلوا، إلا هو نجا بأعجوبة، وإختفى، ويعتقد الناس أنه على قيد الحياة، وظل يلقب عند أهل المنطقة بالملك الحي⁴¹.

ربما هذه الأميرة المفجوعة في بلدها وأهلها أرادت أن تتبرك بهذا القبر، وأجاب مرافيقها طلبها ولما وقفت على القبر وقالت "ربي إذا كان لِقْثَم بن العباس عندك قدر، فأقبض عبدتك إليك، ونجها من أيدي هؤلاء الناس، وسقطت على القبر ميتة"⁴².

³⁹- جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، تاريخ

الخلفاء، تح. أحمد إبراهيم زهوة، سعيد بن أحمد العيدروسي، دط، دار الكتاب العربي، دار الاصاله الجزائر، 1426هـ، 2005م، ص. 360.

⁴⁰- نوميكن فيتالي، سمرقند، تر. صلاح صلاح، ط1، مكتبة نبراس الصفا التاريخية، منشورات المجمع الثقافي، 1996، ص. 20.

⁴¹- في الثقافة الشعبية عند شعوب آسيا الوسطى، يحظى قثم بن العباس وهو ابن عم الرسول، بحالة تشبه التقديس، إذ يطلق عليه عند هذه الشعوب في آسيا الوسطى الملك الحي، أما ماجاء به صاحب كتاب الدولة المغولية في إيران فيما يتعلق بالناجين من الغزو المغولي من أبناء الخليفة العباسي، وأيضاً ما أورده دوسون في كتابه تاريخ المغول الجزء الثالث طبعة 1834م، في نجد أن بعض المراجع واعتماداً على مصادر فارسية، كالجوني والطوسي والهمداني، تذكر أن عائلة الخليفة تم القضاء عليها كلها، أنظر:

--- عبد السلام عبد العزيز فهي، مرجع سابق، ص. 136، وأيضاً، -

محمد سهيل طقوش، تاريخ الحروب الصليبية، حروب الفرنجة في الشرق، 489هـ، 690هـ، 1096م، 1291م، ط1، دار النفائس 1432هـ، 2011م

⁴²- عبد السلام عبد العزيز فهي، مرجع سابق، ص. 136.

⁴³- مرعي فهرست، مقال سابق، 81.

⁴⁴- نفسه، ص. 82

⁴⁵- نفسه، ص. 82.

⁴⁶- رشيد الدين، جامع التواريخ، مج2، ج1، ص. 224.

⁴⁷- محمود سعيد عمران، المغول وأوروبا، ص. 67.

بدر مصطفى طه، محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م.

ابن الأثير عز الدين بن الحسن بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الواحد، الكامل في التاريخ، تحقيق عيد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، 1427هـ، 2006م.

الرمزي محمود، تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قازان والبلغار وملوك التتار، ط1، مج2، 1، دمن، 1980

السيوطي جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، تح، أحمد إبراهيم زهوة، سعيد بن أحمد العيدروسي، دط، دار الكتاب العربي، دار الأصالة الجزائر، 1426هـ، 2005م.

الصياد فؤاد عبد المعطى، المغول في التاريخ، دط، دار المعرفة العربية، 1980م.

طقوش محمد سهيل، تاريخ الحروب الصليبية، حروب الفرنجة في الشرق، 489هـ، 690هـ، 1096م، 1291م، ط1، دار النفائس، 1432هـ، 2011م
عمران محمود سعيد، المغول وأوروبا، الدار الجامعية، الاسكندرية، 1967م.

فهبي عبد السلام عبد العزيز، تاريخ الدولة المغولية في إيران، دط، دار المعارف، مصر، 1981م.

فرنسيس قرد، ماركو بولو هل وصل إلى الصين، تر، فاضل جنكز، ط1، دمشق، دت، ص، 22.
القزاز محمد صالح، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، دط، مطبعة النجف، 1970م.

ابن كثير عماد الدين أبي الفدا إسماعيل، البيداء والنهاية، ط1، ج17، دار هجر للطباعة والنشر، 1419هـ، 1998م
نومكين فيتالي، سمرقند، تر، صلاح صلاح، ط1، مكتبة نبراس الصفا التاريخية، منشورات المجمع الثقافي، 1996م.
هاولد لام، جنكيزخان وحجافل المغول، تر، ميري أمين، دط، دمن، 1962م

- الهمداني رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ تاريخ خلفاء جنكيزخان، من أوكتاى خان إلى تيمورقان، ط1، ترجمة، فؤاد عبد المعطى الصياد مراجعة يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 1983م.

لم تكن مثل هذه الزيجات أمرا جديدا في تاريخ المغول، إنما سياسة عرفت عبر كل فترات التاريخ وظل الهدف منها، إيجاد حلفاء جدد، يمكن أن يساعدوا في مواجهة الخصوم، خاصة إذا كان الهدف واحدا، وهو ما حدث وبشكل جلي في تاريخ العلاقات المغولية الصليبية، إذ تقاطعت الأهداف، بين حلفاء كان همهم الأكبر القضاء على المسلمين.

8-الخاتمة:

رغم أن المحاولات الأولى للتقارب بين المسيحيين والمغول لم تنجح رغم ما بذله الرحالة الايطالي ماركو بولو، إضافة إلى محاولات بعض رجال الدين المسيحيين من أمثال وليم روبروك وغيرهم إلا أن ذلك لم يمنع من تجديد المحاولات المتكررة للصليبيين من أجل إيجاد حليف لهم في منطقة الشرق خاصة بعد أحداث الحروب الصليبية، فبدأت البعثات والسفارات الأوروبية إلى خانات المغول خاصة في عهد منكو خان وهولاكو خان، وتعد زيارة ملك أرمينيا هيثوم الأول إلى قراقورم أحد مؤشرات ذلك التقارب خاصة وان الظروف في حانية إيران كانت مهيأة بسبب أن زوجة هولاكو خان طغز خاتون كانت مسيحية وأظهرت الكثير من الحب والعطف للمسيحيين وتجلت ذلك بشكل خاص خلال عودة هيثوم الأول إلى بلاده حيث استقبل بحفاوة في بلاط هولاكو خان إضافة إلى الابتهاج الكبير الذي أبداه المسيحيين بعد سقوط بغداد في، 656هـ، 1258م، إضافة للحزن الذي أبداه نصارى الشرق خاصة والمسيحيين عامة بعد وفاة هولاكو خان سنة، 664هـ، 1265م، والذي لحقته زوجته طغز خاتون في صيف نفس العام اللذين كانا في نظر المسيحيين نبراسا العالم المسيحي.

9-المصادر والمراجع:

أرنولد توماس، الدعوة إلى الإسلام، تر، إبراهيم حسن وآخرون، ط1، مكتبة النهضة العربية، 1970م
بارتولد فاسيلي فلاديمروفيتش، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، تر، الدين عثمان هاشم، دط، الكويت، 1401هـ، 1981

المراجع الاجنبية:

jackson.peter.the.mission of william
RubRuk.london.

Saunders.j.the history of the mogol conquets.london.1971.

morgan.david .the mongol.oxford1986p
-ROUBrouk.wi.voyag dans l.empire
mongol.ed.payot.paris.1985

المقالات

بوبكر العربي، المغول من الشامانية إلى اعتناق الإسلام، مجلة
الحكمة للدراسات التاريخية، عدد،14.

- مرعي فرست ،التحالف النصراني المغولي ودوره في سقوط
بغداد،مجلة البيان،عدد،300،دت،.